

بعضهم على بعض ، ويقول ابن خلدون " واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم ، وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم".

ويرى ابن خلدون أن الوظائف الاجتماعية للعصبية هي:

1- تؤدي إلى تنظيم علاقات القبيلة في الداخل والخارج ، أي بين أفراد القبيلة الواحدة من جهة ، وبين أفراد القبيلة والقبائل الأخرى من جهة ثانية ، أي أنها تكون الإطار التنظيمي لأهل العصبية ، فتتأطر بموجبها العلاقات الاجتماعية كافة .

2- تؤدي العصبية إلى التعاون بين أهل العصبية الواحدة من جهة ، وأهل العصبية المتحالفة من جهة أخرى ، ويبدو ذلك في دفع العدوان ، أو القيام به ، من أجل تحقيق مصلحة مشتركة ، أي أنها الوسيلة الوحيدة لهذا التعاون ، لعدم توافر أية وسيلة أخرى في ظل الأوضاع السائدة في المجتمع القبلي .

3- تؤدي إلى حفظ كيان القبيلة ، أي كيان المجتمع القبلي بالمحافظة على بنائه الاجتماعي من خلال التضامن ، والتكتل ، ومجابهة الصراع الذي هو صراع وجود ، نظرا لقساوة الظروف الطبيعية ، وضالة الإنتاج ، فيصبح الصراع أمرا طبيعيا من أجل حفظ كيان القبيلة من الانقراض والذوبان ، أي أنها تحفظ استقلالية المجتمع القبلي في نهاية الأمر .

4- تحافظ العصبية على شجرة النسب من خلال التلاحم العصبي الذي يكون أقوى في النسب القريب منه في النسب البعيد ، رغم تأكيد ابن خلدون على أن النسب أمر " وهمي" لكنه مع ذلك يعتبر حقيقة واقعة في المجتمع القبلي.

5- تقوم العصبية باعتبارها أساس التطور الاجتماعي بتدعيم المساواة بين أفرادها في الحقوق والواجبات ، وإلغاء التمايز الطبقي من حيث المبدأ العام ، وإن وجد تمايز في المكان الاجتماعية ، إنما يعود ذلك لما يقدمه الفرد نحو أهله أكثر من غيره ، فهي تدعم " الغيرية " على حساب " الذاتية " أي ذوبان الأنا في سبيل الأناء العصبي . وبموجبها يتأطر سلم القيم من شجاعة ، وكرم ، وخلال حميدة ، أي أنها تسيير أخلاق المجتمع القبلي في نهاية الأمر ، وتكون ناجحة إذا عملت على إحلال العلاقات التعاونية والتضامنية محل العلاقات التنافسية بين أهل العصبية .

- يرى ابن خلدون أن للعصبية وظيفة سياسية ، وهي الوصول إلى الملك والاحتفاظ به ، أي بناء الدولة ، وهي وظيفة تلتقي اليوم مع وظيفة الأحزاب السياسية التي جوهر عملها وهدفها الوصول إلى السلطة ، ويقرر ابن خلدون " أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك " مبينا سبب ذلك " أن الأدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع يحكم بعضهم عن بعض ، فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية ، فالتغلب الملكي غاية العصبية .

ويرى أن وظيفة العصبية تتمثل في صد العدوان ، لأن الطبيعة الإنسانية تنزع إلى العدوان بالفطرة لذا كان لابد من وازع أي حاكم ، ولا شك أن مسألة الوازع قد أولاه ابن خلدون اهتماما كبيرا ، انطلاقا من نظريته المتكاملة عن العصبية ، إذ ينظر إلى الوازع نظرة ثنائية انسجاما مع تقسيمه للعمران البشري إلى نوعين : العمران البدوي ، والعمران الحضري ، ولكل منهما وازع خاص لصد العدوان ، فهو يرى أن أحياء البدو معرضة إلى نوعين من العدوان :

1. العدوان الداخلي : ومصدره من داخل القبيلة ، أي اعتداء أفرادها على بعضهم ، فالوازع لهذا العدوان يكون من قبل أكابرهم ومشايخهم ، لما لهم من الوقار والاحترام عند قومهم ، وهذا نابع من مكانتهم المميزة لدى قومهم.

2. العدوان الخارجي : ومصدره من خارج القبيلة كالغزو أو ما في معناه ، فالوازع لهذا العدوان يكون من قبل شجعان القبيلة ، وأما حللهم فيذود عنها حامية الحي من أنجادهم وقتيانهم المعروفين بالشجاعة.

أي أن السلطة - الحكم - لا يكون إلا بالعصبية ، غير أن ابن خلدون يوضح بأن السلطة لا تكون إلا للعصبية القوية من أجل التغلب على العصائب الأخرى لكي تلتحم معها فتشكل في النهاية عصبية واحدة كبرى - عصبية مركبة - وإذا لم تتوافر لها مثل هذه القوة القاهرة ، فإنها لن تصل إلى السلطة " فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها ، وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى ، وإلا وقع الافتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع.

ويرى ابن خلدون أن العصبية الحاكمة لا تبقى قوية ، وإنما تنتهي ، وتقوم على أنقاضها عصبية أخرى قوية ، وهذه بدورها تضعف وتقوم مقامها أخرى وهكذا دواليك ، أي أن العصبية لا تبقى على قوتها الأولى ، وإنما يعتريها الوهن الأمر الذي يؤدي إلى ضعف الدولة ، وبزوالها تزول الدولة .

ويعلل ابن خلدون ضعف الدولة ثم زوالها بضعف عصبيتها - أي العصبية الحاكمة - وذلك باستبعاد أهل العصبية والانفراد بالمجد والانغماس في الترف والنعيم مما يؤذن بزوالها ، ويقرر ذلك " فلا يزال الملك ملجأ في الأمة إلى أن تنكسر سورة العصبية منها أو يفنى سائر عشائرها " .

ويرجع أسباب ضعف الدولة التي هي أسباب ضعف العصبية إلى ما يلي :

1. سعة الملك مع عدم توافر العدد الكافي من أهل العصبية لتسيير دفة الحكم ، الأمر الذي يضعف سيطرة المركز على الأطراف ، فيستعين من أجل ذلك بقوم من خارج أهل عصبته .

2. التناصر والاختلاف على الحكم بين أهل العصبية ، فيأخذ الحاكم بالانفراد بالمجد ، والتنكر لقومه ، مما يؤدي إلى ضعف عصبيتهم ، لأن العصبية في هذه الحالة لم تحقق شرط قوتها ، وهو المصلحة العامة المشتركة ، والتلازم بين أهل العصبية الواحدة ، مما يؤدي إلى ظهور عصبيات مطالبة بالحكم ، مما يحول دون استقرار الدولة .

3. انغماس الحاكم في الملذات والترف والتبذير ، والركون إلى الدعة من العوامل التي تؤذن بفساد العصبية ، ويقعدها عن تأدية وظيفتها ، حيث يعتقد ابن خلدون أن ذلك ينسبهم حالة " التوحش " الذي يعتبره من المقومات الأساسية من أجل انبثاق العصبية القوية.

4. وجود عصبية مناهضة أقوى من العصبية الحاكمة تقوم بالمطالبة بالملك ، وإلا فإن الضعف قد يطول ، وحين تدخل الدولة في مرحلة الهرم ، تعمل الظروف المصاحبة لهرم الدولة على إيقاظ الوعي العصبي لدى أهل العصبيات المضطهدة ، انطلاقاً من وعيهم للضغط الاقتصادي الذي يهدد كياناتهم ، فتتوحد عصبياتهم في عصبية واحدة ثائرة.

- وقد اعتبر ابن خلدون العصبية ضرورة طبيعية لتكوين العمران البشري وبدونها يتعذر قيام هذا العمران لأسباب اجتماعية - اقتصادية ، وقد اعتبرها علة التغيير الاجتماعي في المجتمع مبينا وظيفتها

الاجتماعية في حفظ كيان المجتمع وتماسكه ، وهي الأساس الوحيد لقيام التحالف بين القبائل وتوحيدها بالإضافة إلى تدعيم المساواة بين أفرادها مما يفسر لنا عدم نشأة التمايز الطبقي في العمران البدوي.

كما أنها تؤدي إلى نشأة الملك " الدولة " وقوته ، ويضعفها الملك ويزول ، فوظيفتها السياسية تنحصر في تحقيق الملك والاحتفاظ به (كالأحزاب السياسية اليوم) بعد أن يتم لها التغلب على العصبية الأخرى ، ويؤكد ابن خلدون أن المجتمع لا يستقيم إلا بوجود دولة ، وبذلك تكون الدولة ضرورة فرضها واقع المجتمع الإنساني ، وهذه الدولة لن تحصل إلا عن طريق العصبية أي عن طريق القوة وبذلك يكون قد سبق أصحاب نظرية القوة في نشوء الدولة ، وتأكيد على أن الصراع العصبي مقابل الصراع الطبقي عند المادية التاريخية هو المحرك للمجتمعات ، وبذلك يكون قد صاغ نظرية جديدة مفسرة للتغير الاجتماعي ألا وهي نظرية الصراع العصبي ، وقد اعتبر الحضارة نهاية العمران أي نهاية الانفكاك العصبي.